

مدينة مليانة، موقعها الجغرافي ودورها الاقليمي

أ. أحمد طهراوي باب الزوار

تقع مدينة مليانة بالسفوح الجنوبية لجبال الزكار على ارتفاع حوالي 700 م فوق سطح البحر، وهي بذلك تشرف على سهول الشلف و على المنطقة الواقعة بين جبال الونشريس و الزكار حتى حدود المدية شرقا، و وجودها على هوامش الشلف جعلها تتوفر على كل أنواع المنتوجات الزراعية.

هذا الموقع جعلها تتحكم في الممر الطبيعي الرابط بين الجزائر و وهران باعتبارها تحتل نقطة إستراتيجية هامة تشرف على كل المناطق المجاورة لها، مما أهلها لأن تكون عاصمة إدارية و ثقافية ونقطة إستراتيجية عسكرية عبر العصور. فمن منطقة الزكار الغربي شمال مدينة مليانة يمكن رصد كل التحركات العسكرية من الونشريس جنوبا الى المدية شرقا و إلى متيجة شمال شرق، وهذا الموقع جعل منها مدينة حصينة محمية من الخلف أي من ناحية الشمال بجبال الزكار.

هذه العوامل الطبيعية الهامة اقتصاديا و عسكريا هي التي استجلبت انتباه القادة العسكريين و رجال السياسة والاقتصاد عبر العصور فأسسوا مدينة مليانة منذ العصور القديمة التي ذاع صيتها و تحدث عنها الكثير من الرحالة و المؤرخين الذين كتبوا عن شمال إفريقيا و عن المغرب العربي، كابن خلدون و البكري و الإدريسي، و الوزاني الخ....

لقد لعبت مدينة مليانة دورا كبيرا في تاريخ المغرب الأوسط في المجالين الاقتصادي والسياسي عبر العصور. أما عن تسميتها فقد اختلف الرحالة و المؤرخون في ذلك إذ سماها مارمول (الاسباني) مليان، و سماها شاو (الانجليزي) "مليانة" بناء على نطق الأهالي المحليين، و يضيف آخرون أن هذه التسمية منسوبة إلى إحدى قبائل بني هندل الصنهاجية التي كانت تتوطن منطقة الونشريس، حين تأسيس مدينة مليانة من طرف بولغين. مثلما نسبت مدينة المدية إلى قبيلة "لدية".

أما السكان المحليون فيقولون بأن التسمية تعني مليانة أي ملآنة بالخيرات غنية بالمياه العذبة مشهورة بتقدمها الحضاري الثقافي كعاصمة للإقليم بالنسبة إلى المناطق المجاورة لها.

و يعود تأسيسها إلى تاريخ ضارب في القدم فهي مدينة غريقة يجمع المؤرخون على أن تأسيسها يعود إلى عهد الاحتلال الروماني حوالي 33 للميلاد و أنها كانت من أكبر المدن القيصرية، بنيت على أنقاض مدينة زوكبار التي قال فيها البكري "وهي مدين رومية فيها آثار و هي ذات أشجار و أنهار....." ظهرت منذ نشأتها كمدينة حصينة. عرفت في العهد الإسلامي ازدهارا ثقافيا و سياسيا و رخاء اقتصاديا لم تعرفه من قبل، بعد أن جددها زيدي بن مناد أو وولده بولغين. اذ يقول ابن خلدون " ثم اختط ابنه بولغين بأمره و على عهده (زيدي) مدينة مليانة.

ويقول البكري: " جددها زيدي بن مناد و أسكنها بولغين حوالي 972م / 339 هـ لقد برزت مدينة مليانة في العهد الإسلامي كمدينة من أعظم مدن المغرب الأوسط لما لعبته من دور هام في المجالين السياسي و الثقافي، جاء في كتابات ابن خلدون " ثم اختط انه بولغين بأمره و على عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة، و مدينة مليانة بالعدوة الشرقية من نهر الشلف، وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط" وفي نفس السياق ذكرها الإدريسي في كتابه وصف إفريقيا الشمالية.

ومن العوامل التي أدت إلى نشوء و بروز مدينة مليانة كمدينة تاريخية شهيرة ملائمة الموقع الجغرافي و الإستراتيجي العسكري، ووفرة الإنتاج الزراعي مما أهلها لأن تكون عاصمة للإقليم و مما ينتج عن ذلك من ازدهار ثقافي و اقتصادي.

فموقعها على الطريق الرابط بين الجزائر وهران، و بين الوسط و الغرب جعل منها صلة وصل بينهما و محط رحال المسافرين، حيث مر بها الرحالة و المؤرخون ووصفوا حسن موقعها ووفرة خيراتها و كثرة مياهها و اتساع عمرانها. مثل البكري، و الإدريسي الذي يقول عنها في كتابه وصف شمال إفريقيا " وهي مدينة قديمة البناء، حسنة البقعة، حسنة كريمة المزارع، ولها نهر يسقى أكثر مزارعها و حدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها المذكور، و لإقليمها حظ من سقي نهر الشلف".

هذه العوامل أدت إلى ازدهار النشاط الزراعي و تزايد الحركة التجارية و رخاء العيش فاستجلبت المنطقة السكان من كل جهة و كثر بها العمران و انخفضت بها الأسعار ويقول في ذلك صاحب كتاب الاستبصار " فيها جميع الفواكه و هي من

أخصب بلاد إفريقيا، و أرخصها أسعارا... مشرفة على فحوص واسعة و قرى كثيرة عامرة و مزارع واسعة و حولها قبائل كثيرة". فكل المناطق المجاورة لها كانت تابعة لها و تحت إشرافها الإداري من عين الدفلى غربا إلى حدود المدية شرقا.

كان يتوافد عليها الزوار و بالأخص في فصل الربيع عندما يلطف الجو و تزهوا الطبيعة، حيث يتوافد الزيار على ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف و يقام الاحتفال بعيد الكرز الذي تشتهر به بساتين مليانة المتمثلة في منطقة زوقالة.

و نظرا لهذه الأهمية الاقتصادية و الإستراتيجية الحربية التي كانت تتمتع بها مدينة مليانة فإنها وقعت محل تنافس و صراع بين دول المغرب آنذاك و المتمثلة في الحفصيين بتونس و الزيبريين بتلمسان، و بني مرين في المغرب، ومع بداية الحماية التركية للجزائر من غزو الإسبان سارع بابا عروج إلى بسط نفوذه العسكري و السياسي على الجهة الغربية من البلاد، و استولى على مدينة مليانة و تنس عام 1516- 1517م فأصبحت تابعة لبايك الغرب الذي كانت عاصمته بمازونة، و نظرا لإستراتيجيتها أي مليانة اتخذها الأتراك صلة وصل بين الجزائر العاصمة و مدن باييك الغرب، كوهران و تلمسان و مستغانم و أسكنوا بها قبائل المخزن، وجعلون منها قنات (محطة أو نهاية مرحلة) و من بين الرحالة الذين كتبوا عن مدينة مليانة في هذا العهد، الحسن بن محمد الوزاني الفاسي الملقب بالأسد الإفريقي في 1/2 القرن 16 الميلادي، حيث قال:

" مليانة تقع على قمة جبل... تتفجر منه عيون كثيرة و تكسوه غابات من شجر الجوز..... و تحيط بالمدينة أسوار عتيقة".

يستنتج من هذا كله أن مدينة مليانة، عرفت في العهد الاسلامي فترة ازدهار سياسي و ثقافي و اقتصادي لم تعرفه من قبل، بحيث صارت خلال هذه الفترة مركز إشعاع للثقافة الإسلامية و كان يؤمها الطلبة من كل حذب و صوب طلبا للعلم. و نتج عن ذلك وجود شخصيات علمية و أدبية من أبرزها الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف المتوفى عام 927هـ الذي مازال مقصدا للزوار إلى اليوم، و قال عنه السللاوي: "والشيخ أبو العباس، أحمد بن يوسف الراشدي الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية و كان كثير التلقين" أي كان فقيها عارف بأمور الدين، يلقي غيره بأصول الشريعة، فاتبعة الناس و بالغه في محبته حتى نسبته بعضهم إلى النبوة (اليوسفية) فتهرباً منهم و قاتلهم على هذه البدعة، و كان إلى جانبه شخصيات علمية و أدبية أخرى مثل علي بن عمران بن موسى الملياني المتوفى ببجاية سنة 670هـ و غيره، و استمر

لمليانة دورها التاريخي السياسي و الاقتصادي عبر العصور حتى نهاية الاستعمار الفرنسي للجزائر.

ففي بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر كانت مدينة مليانة من أكبر المراكز السياسية و العسكرية للمقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي ، حيث عين عليها الأمير عبد القادر خليفته بن علال حوالي 1834 فأصبحت إحدى مناطق التموين بالمنتجات الزراعية لمدن و مناطق أخرى من الوطن، و بداية عام 1836 عندما اختط الأمير عبد القادر مدينة تادميت في الغرب كانت مليانة تمونها بالأجبان و الفاكهة في مرحلة بنائها، كما أنشأ الأمير عبد القادر بمليانة مصنعا خاصا بالأسلحة و البارود لحصانتها العسكرية ووجود مادة خام الحديد بالقرب منها، يقول في ذلك شارل هنري تشرشل، في كتابة حياة الأمير عبد القادر " و كان أحد الفرنسيين الاختصاصيين في علم المعادن (de casse) قد أنشا في مدينة مليانة مصنعا للبنادق و آخر لإنتاج البارود، وكان الحديد يحضر من منجم بالقرب من مليانة، مما جعل منها مخزنا للذخيرة الحربية التابعة لجيش الأمير عبد القادر و دارا لسكنائه و مقرا لسلطانه حيث جاء على لسانه أي الأمير عبد القادر : " لقد كنت أضع بارودي الخاص في تلمسان و معسكر ومليانة و تاقدامت....."و بعد أن تم احتلالها من طرف الفرنسيين، اتخذ منها الاستعمار الفرنسي قلعة عسكرية و مقرا لحكم الإقليم.

و الزائر اليوم لمدينة مليانة يشاهد بقايا و آثار مصنع الأسلحة الذي أنشأه الأمير عبد القادر شرق المدينة، و الدار التي سكنها ك معلمين تاريخيين ، و قد رمت دار الأمير ومقر سلطانه الواقع بساحة المدينة وحولت في الوقت الحالي إلى متحف تاريخي . و إبان الثورة التحريرية كانت مليانة و منطقتها معقلا للثوار و غايات الزكار المجاورة لها ملجأ للمجاهدين الأحرار، قدمت مليانة خلال الثورة التحريرية 685 شهيدا من أبنائها البررة استشهدوا في ميدان الشرف، منهم علي عمار المعروف بعلي لابوانت بطل معركة الجزائر الذي استشهد بالقصبة في معركة شرسة مع العدو الفرنسي يوم 1957/10/08 رحم الله شهداءنا الأبرار .

وبعد الاستقلال حافظت مدينة مليانة على وظيفتها الإدارية و الخدماتية حيث كان يوجد بها أكبر مستشفى بالمنطقة، و يوجد بها مقر الدائرة التي تتبعها كل بلديات الإقليم من حدود عين الدفلى غربا إلى حدود المدية شرقا وتوجد بها المصحات الطبية، وثانوية الشهيد مصطفى فروخي والشيخ محمد عبده وهما الثانويتان الوحيدتان في المنطقة ، يؤمهما الطلبة من عين الدفلى إلى تسمسيلت إلى شرشال، مما جعل فيها حركة دائمة و تجارة نشيطة و سياحة و اقتصاد مزدهر.

لكن الدور الذي لعبته هذه المدينة والازدهار الذي عرفته في مختلف المجالات عبر العصور قد تضائل إلى حد كبير في الوقت الحالي، حيث تحول جزء كبير من هذا النشاط إلى مدينة خميس مليانة جنوبا وذلك لعدة أسباب أو منها:

تبرم الطريق الوطني رقم 04 الرابط بين الجزائر ووهران عن مدينة مليانة منذ نهاية الخمسينيات من القرن 20 (1957/1958) وهو الذي كان يمثل شريانا اقتصاديا لمدينة مليانة وضواحيها.

تقف منجم زكار، القريب منها عن النشاط نهاية السبعينات وهو الذي كان يمثل مصدرا اقتصاديا هاما للسكان حيث تراوح عدد عماله بين 528 عاملا سنة 1966 و 450، عاملا نهاية السبعينات وكان يساهم في تنشيط الحياة الاقتصادية في المدينة.

تقلص دورها الإداري كمقر للدائرة ابتداء من سنة 1985 فبعد أن كانت تشرف على كل البلديات من حدود عين الدفلى غربا إلى حدود المدينة شرقا، أصبح دورها الإداري محصورا في بلديتين فقط هما بلدية مليانة، و بلدية علال، الواقعتين بالسفوح الجنوبية لجبل زكار على أراضي حدية فقيرة.

منافسة مدينة الخميس لها في مجال كثير من الخدمات، هذه الأخيرة بحكم وقوعها على مفترق الطرق الرابط بين المدينة شرقا وثنية الأحد جنوبا، وعلى الطريق الوطني رقم 04 الرابط بين الجزائر ووهران، وعلى هوامش سهل الشلف، عرفت توسعا عمرانيا كبيرا، وبنيت بها المستشفيات ومؤسسات التعليم والمصانع واستقلت إداريا عن مليانة، وازدهرت بها التجارة إلى حد بعيد، كل ذلك جعل دور مدينة مليانة يتقلص في مختلف المجالات لتصبح مدينة شبه معزولة تعاني من ضعف النشاط الاقتصادي، و قلة الزوار الذين كانوا يتوافدون عليها من كل حذب و صوب و يبعثون فيها الحيوية و النشاط في مختلف المجالات وفي كل الأوقات.

نظرا لهذه الأسباب فإنه لا يمكن تجديد نشاطات مدينة مليانة في الوقت الحالي إلا بواسطة استثمارات في مجال بعض الصناعات الملائمة واستصلاح أراضي للنهوض بزراعة جبلية ملائمة، وبناء قطب جامعي نظرا للملاءمة المناخ، والنهوض بالقطاع السياحي، كبناء الفنادق و المنتجعات و المرافق السياحية، لأن موقعها و ظروفها الطبيعية تؤهلها لذلك، فمنطقة مليانة تتميز بظلالها الظليل و هوائها العليل و مائها العذب السلسيل كما يقول بعض العارفين. وشكرا للجميع على الإصغاء وحسن الانتباه والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

